الفصل السابع

﴿ الجلسة الثانية ﴾

العلم ومشاكله

وفي الليلة التالية ازدحمت الحديقة بالاقدام ازدحاماً شديداً . ذلك ان الخطب التي أُلقيت امس حمّست السكان ولم يكن في المدن الثلاث في ذلك النهار حديث في غيرها . وقد حدثت بعد العصر عدة فتن في مدينة المال بين العمال واصحاب الاعمال فاضطرت الجنود الى المداخلة اعادة للنظام . ولذلك كان عدد الجند حول الحديقة في هذه الليلة اكثر منه في العادة

ولما انتظم عقد الاجتماع وجلس الشيخ الرئيس في كرسيه وعلى وجهه لوائح القلق واشتغال البال انصت الجميع . فقال الشيخ الرئيس

ـ كلوا يا اولادي مباحثتكم في مصالحكم واذكروا وصيتي لكم بالهدوء والسكينة

وكانت هذه الجلسة مخصوصة بالعلم ورجاله . فنهض زعيم كبير من صفوف رجال الدين وابتدأ يخطب في الجمع بصوت جهوري . فقال

دعوى اهل الدين

ايها السادة

ـ لما كنت اصغي الى الخطب الثلاث التي القيت امس كنتُ اظنني في حلم . لان الخطباء الثلاثة بعد كل ما ذكروه في اثناء كلامهم لم يدخلوا في اساس الموضوع . فكل كلامهم كان خارجاً عن دائرة المسألة

ان المسألة الكبرى التي هي مسألة المسائل في الهيئة الاجتماعية هي « كبح هوى الانسان » اي وضع شكيمة تضبط شهواته واهواءه لان الاجتماع مستحيل من غير هذه الشكيمة . وهذا هو السبب في نزول الاديان وقيام المهذّبين والمرشدين ليعلّموا البشر انهم لا يكونون بشراً الا اذا كسروا حدتهم وقللوا طمعهم وسكّنوا اهواءهم وسامحوا المسيئين اليهم . الى غير ذلك . ولكن تعالوا وانظروا ماذا يصنع اهل الكفر والضلال

فصاح صائح من بين صفوف اهل العلم

ـ لم يصنعوا شيئاً سوى انهم نقلوا الجنة من السماء الى الارض

فاتمّ الخطيب كلامه دون ان ينتبه اليه قائلاً

ـ انهم قاموا يعلّمون الناس الانفكاك من هذه القيود الادبية الجميلة التي حفظت الهيئة الاجتماعية الى اليوم . فانهم يحرّضون الضعفاء على ان يتمتعوا بالحياة كالاقوياء . ويعلمونهم ان ذلك من حقهم لانهم الاكثرية . وان اللذات الموعودين بها فوق تعويضاً لهم عما فاتهم منها هنا انما هي لذات وهمية . وبهذا التعليم ايها السادة يهدمون نظام الاجتماع الذي يزعمون انهم حافظوه ويثيرون كل ما في نفس البشر من الاحقاد والضغائن والشهوات الحيوانية

فصاح حينئذ صائح من صفوف العمال

ـ كم اعطاك اهل المال لتقوم مدافعاً عنهم

وصاح صائح آخر منهم

ـ لا عتب علينا نحن العوام اذا كنا نطلب التمتع بخيرات الارض ما دام رجال الدين قد سبقونا الى ذلك منذ ازمان

فاتمّ الخطيب كلامه قائلاً

ـ فاهل الضلال هم السبب في كل هذه الفتن وهذه الاضطرابات . ولست اسميهم « اهل العلم » لان العلم الحقيقي براء منهم . وها في صفوفنا نحن كثيرون من اهل العلم الحقيقي ينكرون تلك البدع المهلكة

« ايها السادة . ان بابل ونينوى وسدوم وعمورة انما خربت وصُب عليها غضب الله لانها اطلقت اهواءها وشهواتها من كل قيد . فهل ترومون ان يصيبنا ما اصابها

« هؤلاء المصلحون اصلحهم الله يريدون الاشتراكية . اي يريدون هيئة اجتماعية فيها الجميع اخوة وتكون ادارتها تهتم بالجميع . فعافاكم الله ايها المقلّدون الذين يُسمون انفسهم مخترعين . الا ترون ان هذه الهيئة هي هيئتنا نفسها . فتعالوا اذاً الينا . ولكنكم لا تأتون لان اشتراكيتنا نحن مبنية على المحبة والرفق لا على العنف والغصب . نحن نعتبر الكبير فينا صغيراً والصغير فينا كبيراً واما انتم فتريدون ان تكونوا كلكم كبراء . نحن نجامل الجميع ونساوي بين الجميع لنرضي الجميع واما انتم فتريدون جعل الفقراء اغنياء والاغنياء فقراء . نحن نطلب خيرات الدنيا لنفرقها على غيرنا واما انتم فتطلبونها لتدفنوها في بطونكم

« فالفرق بيننا وبينكم في المسألة الاقتصادية كالفرق بين الخير والشرّ والبياض والسواد . انتم تحرّضون وتهيجون ونحن نسكّن ونهمّد . والله من اعالي السماء يعلم اينا انفع للهيئة الاجتماعية

فصاح حينئذٍ صائح من بين العمال

ـ هذا افتخار من يكبح جماح البقرة ويمسكها لمن يريد حلبها

وصاح صائح من فريق اهل العلم

ـ نراكم جرتم تفتخرون بفوائد مبادئكم بدل الافتخار بصحتها

فاجاب الخطيب ـ ان المفيد يكون صحيحاً دائماً

فصاح واحد آخر من فريق العلم ـ ان دين بوذه و كونفوشيوش وبرهما صحيح ايضاً لانه مفيد

فاستشاط الخطيب غضباً حينئذ وصاح مخاطباً اهل العلم

ـ كل المذاهب خير من مذهبكم . ونحن سواء كنا مسيحيين او مسلمين او اسرائيليين او بوذيين او براهمة او كونفوشيوشيين كنا على اتفاق ضد مبادئكم المهلكة

فصاح صائح آخر من فريق العلم

ـ هذا افتراء فظيع علينا فاننا نؤمن بالله مثلكم

فاشتد غضب الخطيب فقال

ـ نعم تؤمنون بالله لتتخذوا هذا الايمان ستاراً تنشرون وراءه مبادءكم . وهل تحسبوننا بلهاً الى هذا الحد حتى نكتفي منكم بالايمان بالله . فاما ان تؤمنوا كما نؤمن نحن اوتكونوا جاحدين . هل تؤمنون برسالات الرسل والانبياء والاقانيم الثلاثة وعلم الله بكل شيء ومقدرته على كل شيء والبعث والحساب في عالم آخر فيه جنة وفيه نار . كلا انكم لا تؤمنون بذلك . ومع ذلك تنادون « ان علمكم موافق للدين » . وعلمكم لا يكون موافقاً للدين عندنا الا متى اضاف الى ايمانه بالله الايمان بهذه الامور لانها هي الدين . فتدجيلكم اجيزوه بعد الآن على السذج لا علينا

فقطع كلامه احد رجال العلم قائلاً

ـ هل تعلمون سياستكم هذه الى اي هاوية تجركم

فاجاب الخطيب

ـ كل الهاويات عندنا مقبولة بالنسبة الى هاويتكم . انكم تهدمون ما بنيناه في عدة قرون . انكم تضعضعون الهيئة الاجتماعية من اساسها . فعلينا محاربتكم بكل سلاح

« ولكن خبرونا ماذا تريدون ان تضعوا بدل الشيء الذي تطلبون هدمه . لاريب انكم تعلمون المبداء القائل « لا يمكن في الاجتماع هدم شيء الا متى امكن وضع شيء آخر مكانه يقوم مقامه » فماذا تضعون موضع الدين . أتضعون العلم ؟ لله ما

لله ما اسخف احلامكم. اذهبوا وقولوا للناس وخصوصاً للشعب المسكين : يجب عليكم ان تحبوا قريبكم من اجل العلم . وتصنعوا الخير من اجل العلم وتعفّوا عن مال غيركم اكراماً للعلم . ولا تصنعوا شرّاً في السر ولا في العلانية اكراماً للعلم — وحينئذ تسمعون الجواب . ولكن ويل للهيئة الاجتماعية في ذلك اليوم الذي تقطع بيدها الاثيمة قيود خوف الله ورهبة الدين لتجرب هذه التجربة الهائلة

فقطع هنا كلامه خطيب العلم السابق قائلاً

— هل تسمح لي ان اجيبك الآن عن هذا الكلام

فقال الخطيب

— اذا كان جوابك وجيزاً فلا بأس

فقال المعترض

— معاذ الله ان نروم هدم الدين كما تفترون علينا وانما نروم هدم الاوهام والخزعبلات في الدين . فلماذا تجعلون هذه قسماً منه . واول هذه الخزعبلات قولكم ان الانسان لايمكن ان يعبد الله ولا ان يفهم الكتب الدينية الا بواسطة كاهن او شيخ . وبذلك تضعون انفسكم بين الله وبين عباده رفعاً لشانكم وطلباً للفائدة لكم . وهذا ما جعل بعض رجال الدين في بعض خطبه العمومية يفضّل الذبيحة اليومية في الكنيسة على كل ما في الديانة المسيحية من الفضائل وروح الكمال . فنحن اذا حاربناكم فانما نحارب هذه السيطرة على عقول الناس . اي نحارب اتخاذ المبدأ سبيلاً للمصلحة

« اما ماذا نضع موضع الدين فهذه مسألة يجيبكم عنها علماء الفلسفة الوضعية او الحسية . فانهم يقولون ان للبشر ثلاثة اطوار : طور الطفولية وهو الاعتقاد بان العالم محكوم بالارواح والآلهة . وطور الشباب وهو البحث في ما وراء الطبيعة . وطور الرجولية وهو طلب الهيئة الاجتماعية «نفع الناس» بناء على « الواجب» ومحبة الناس والعقل والمصلحة المتبادلة . وهم يقولون ان البشر متى وصلوا الى هذا الطور صاروا يعملون ما يجب عليهم عمله من غير ارهاب ولا تشويق بل بسائق فطرتهم ومصالحهم المتبادلة المحصورة في هذه العبارة « يجب ان لا اصنع بالناس الا ما اريد ان يصنع الناس بي »

فصاح الخطيب

— اذاً تكون قصارى فلسفتهم ايها السادة ان ياكل الناس ويشربوا وينامو ويعيشوا معيشة الخنازير . هذه هي « المعيشة الوضعية » وكثيرون من البشر هذا شانهم

اليوم . وهم يضيفون الى ذلك التمتع بكل شهواتهم واهوائهم الحيوانية . فهل يكون في المستقبل ايها السادة هؤلاء الحيوانيون العابثون بكل شيء مصيبين والذين صرفوا حياتهم بالعفاف والزهد والفضيلة والخير والصلاح مخطئين . هل المستقبل سيذبح الفضيلة هذه الذبحة الهائلة بان يثبت ان اولئك كانوا اقرب الى الحقيقة من هؤلاء . اذاً ما افظع الحاضر وما افبح المستقبل . و ياهاويات الفناء . يا جحيم العدم . ابتلعينا منذ الآن واريحينا من حاضر فظيع ومستقبل قبيح

« ولكن لا لا . ان الله موجود ايها السادة « وكل ما في الطبيعة يدل عليه ويشير اليه . ولا ينكره الا الاشرار الذين يخافون عدله» . ونحن لا نعلم هل يوجد في العالم بشر تكفيهم تلك المعيشة الخنزيرية المجرّدة عن كل عاطفة انسانية كريمة وكل جنوح الى ما وراء الطبيعة ولكننا على ثقة من ان في العالم قوماً لا تكفيهم هذه المعيشة الحيوانية . بل ان نفوسهم الشريفة وفطرتهم السامية تجنح دائماً الى خالق الطبيعة وواهبها قواها . الى الآخرة التي هي وطننا الحقيقي . الى الحياة الروحية التي هي الحياة الحقيقية . — وبناء على ذلك يكون علمكم وفلسفتكم مما يُرضي قسماً من الانسانية فقط . والقسم الثاني لا يستغني عن علمنا وفلسفتنا اي عن مبادئنا الدينية . ولذلك يكون الدين من حاجات قسم كبير من الناس لاختلاف قلوب الناس باختلاف فطراتها ولان اصوله مغروسة في النفوس لا في الكتب والاوراق

فصاح به المعترض

— ولكن هذا الفريق من الناس ينقرض متى دخلت الانسانية في الطور الثالث من اطوار الفلسفة الوضعية التي تقدم ذكرها

فصاح الخطيب ضاحكاً ومتهكماً

— انتظروا فاننا معكم منتظرون . ولكن على افتراض ان هذا القول صحيح هل يجوز جرح عواطف النفس بمهاجمة معتقداتها قبل حصول هذا التغيير ودخول الانسانية في طور التحوّل عما بين يديها

فاجاب المعترض

— نحن نجاهد كالرسل والانبياء . ولولا هذه المجاهدة لما تقدمت المبادىء . وهل تظنون ان المسيحيين والمسلمين لو انتظروا حصول التغيير في الارض من مجرّد سير المبادىء كانوا قد وصلوا الى ما وصلوا اليه

فصاح الخطيب وقد فرغ صبره

— بئس هذا الجهاد الذي تقومون به . فانكم تهدمون به كل شيء محبوب الينا . واي شيء سلم من هدمكم . لقد هدمتم الدين وهدمتم الوطن وهدمتم الجيش وهدمتم العائلة وهدمتم العادات الجميلة المقدسة

فضحك هنا كثيرون من فريق العلم وقال احدهم

— انك تتسلح بالمبادىء الوطنية و بالدفاع عن الجيش تقوية لحجتك

فقال الخطيب

— وهل تنكرون انكم افسدتم الفكرة الوطنية وشوّهتم مبادئها المقدسة . اما نسمعكم دائماً تعلّمون الناس ان البشر اخوان وان الحدود يجب ان تُزال من بين بني الانسان . فما معنى هذا عندكم . اليس معناه تسليم الوطن للاجانب . ثم اما انتم الذين تدعون الى نزع السلاح وقصدكم من ذلك اضعاف جيشنا لكي يصبح غير قادر على مقاومتكم يوم تريدون انفاذ اغراضكم . اما انتم الذين تحرّضون الجنود على الفرار من الخدمة العسكرية لانها عارٌ في مذهبكم لقيامها على حمل السلاح وسفك الدماء وتنشرون المنشورات بين صفارهم ليعصوا قوادهم ولا يكبحوا جماح العيال في اوقات الاعتصاب . اما انتم الذين ادخلتم الطلاق في العائلة فضعضعتم به اساسها واساس الهيئة الاجتماعية ثم تريدون الآن توسيع نطاقه باعطاء كل واحد من الزوجين حق الطلاق حينما يطلب ذلك وان لم يرضَ به الثاني . اما انتم الذين تدعون الى اباحة الزواج من غير زواج والعياذ بالله اي من غير عقد رسمي سوى رضى الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل ومتى شاءا يفترقان كما اجتمعا

فصاح حينئذٍ كبير من فريق رجال العلم

— يظهر ان هذا الكذب لا حدّ له عندكم فانكم تنسبون الينا كل اعمال الاشتراكيين مع علمكم اننا براء منها

فقال الخطيب

— ولكن أليست هذه كلها نتائج مدنيتكم هذه . انما اردنا ان نظهر للامة الهاوية التي تجرّون البلاد اليها اذا بقيت لكم الحرية . فانكم تعطلون عقائد الامة بجرّها الى الالحاد . وتثيرون الحرب الاهلية بتحريضكم الصغار على الكبار والضعفاء على الاقوياء . وتفرّقون الجامعة الوطنية والدينية بدعوتكم الى الاخاء والتعاون الانساني . وتُضعفون قوة البلاد بمقاومة جيشها واهانته في كل يوم . وتهدمون الهيئة الاجتماعية والفضائل المدنية بمحاربتكم العائلة ووضعكم الفاحشة موضع الزواج المقدس اللطيف

« هذه ثمار اعمالكم ايها السادة . ومن ثمارهم تعرفونهم . فلا يفتخروا بعد الآن بانهم حفظة « النظام المطلق » مع انهم مضعضعوه . ان النظام يقتضي قبل كل شيء « انكار الذات » اي ان يتنازل الانسان عن شيء من حقوقه في سبيل المصلحة العمومية اكراماً للذين يخدمون و ينفعون . فالرؤساء والحكام والاغنياء والكبراء يتفانون في الخدمة العمومية ونفع الامة ولذلك يجب على افراد الامة ان ينكروا ذواتهم قليلاً ويتركوا لهم شيئاً من حقوقهم في مقابلة متاعبهم ومسئوليتهم . ولذلك تكون المساواة المطلوبة بين هولاء وافراد الامة عبارة عن وهم وخيال . اما المساواة الممكنة الحقيقية ايها السادة فهي تكون في السماء لدى الله لا في الارض بين الناس »

وهنا فرغ الخطيب من خطابه وجلس وهو يمسح العرق عن جبينه . ويظهر ان الغيظ الذي كان في اثناء كلامه يجيش في صدور العمال والغلاة من انصارهم قد طفح حين سكوت الخطيب فهاجوا وماجوا وصرخوا صرخة واحدة قائلين « فليسقط الظالمون » وصاح احدهم « قلت ان المساواة وهم وخيال فالوهم معتقدك والخيال في دماغك اما المساواة فسنحققها او نموت » وصاح اخر « ان قولك وهم وخيال ينقض كل الاديان ولكن لا يهمكم دينكم ما دامت مصلحتكم مصونة » — فردّ عليهم حينئذ فريق من رجال المال ورجال الدين وعلت الضوضاء واحتدم الجدال وتماسك فريق منهم بعضهم ببعض وتضاربوا فعمت الفتنة الحديقة كلها واضطرت الجنود الى المداخلة حفظاً للامن . ولكن الجنود لم تتمكن من ذلك الا بشق النفس لعظم الاضطراب . ثم انجلت الفتنة عن جريحين حُملا الى المستشفى بحالة النزع . واخرجت الجنود الناس من الحديقة وفرقتهم في المدن الثلاث لان التحمس كان شديداً

الفصل الثامن

الجلسة الثالثة

الدرس ومشاكله

وفي اليوم التالي انتبه السكان على اصوات جلبة العمال واجتماعهم في الشوارع والاسواق افواجاً افواجاً لاعتصابهم وتركهم العمل بتاتاً في ذلك اليوم . فتفاقم الخطب وازداد الاضطراب .